المحاضرة الثالثة الحجاج في البلاغة العربية القديمة

الحجاج عند الجاحظ:

يعد الجاحظ من أوائل المتكلمين وهو أحد المؤسسين للمذهبي الاعتزالي، سنحاول من خلال هذه دراسة أن نقف على جهود الجاحظ في هذا الباب، فالقارئ لكتاب البيان التبيين للجاحظ سيجد أنه كتاب اهتم كثيرا بمسائل بلاغية ولغوية واهتم كذلك بمسألة الحوار وثقافته في التأسيس لبلاغة الإقناع ومن أهم من تحدث عن ذلك محمد الطلبة في قوله: إن الجاحظ يظهر بمظهر المدافع عن أسلوبية الحوار وثقافته، إنه يحاول أن يؤسس لنظرية الإقناع تنطلق من مركزية الخطاب اللغوي، بكل ما يصحبه من وسائل لغوية وغير لغوية، أساسها مراعاة أحوال المتخاطبين.[1]

ويرى محمد العمري أن البيان عند الجاحظ مرتبط بالمعرفة والإقناع بعدهما مفهومين ووظيفتين في الوقت نفسه، بيان المعرفة وظيفته الإفهام، وبيان الإقناع وظيفته الإقناع.[2] وتوصل العمري إلى أن المشروع الجاحظي في البيان التبيين "يمثل موقفا حضاريا يتجلى في المشروع الإقناعي القائم

---

[1] محمد سالم محمد الأمين طلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط01، 2008، دار الكتابة الجديدة المتحدة، ص210.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق المغرب، ط01، 1999، ص193.

على العقلانية والمنطق والاستمالة بشتى وسائل التصوير والتعبير ومأثور الأقوال الشعرية والخُطبيّة التي تسمو إلى مستوى الحكمة والمثل"[3].

إن الجاحظ لم يكن ليصل إلى هذه المكانة البلاغية والنقدية إلا من خلال تمكنه في أفانين القول، وامتلاكه سلطان اللغة، إلى قدرته العقلية الفريدة التي تميز بها في ذلك العصر، إذ يقول عنه شوقي ضيف: تربى الجاحظ في ذلك العصر على يده شيخه وأستاذه النظام فأخرجه لسنا جدلا، يعرف كيف يحاور ويداور، ومتى وكيف يستعين بآليات المنطق الصحيح ليعزز موقفه، ويدعم رأيه، وينصر فكرته، ويبرهن لقوله.[4]

الحجاج عند الجرجاني:

تتجلى ملامح نظرية الحجاج عند عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم، وهي نظرية جاءت للفصل بين قضية نقدية وهي قضية اللفظ والمعنى، ولمن يعود الفضل والمزية، فمن خلال كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة نجد أنه كثيرا ما ربط مسألة التأثير والتحريك بالبلاغة وصورها، كالتمثيل والاستعارة والتشبيه فنجده يقول في التمثيل: "إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته،

---

[3] رحمون سالم، بومسحة العربي، ملامح الحجاج في الدرس البلاغي القديم (بين الممارسة والتنظير)، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة المسيلة، مج06، ع02، 2022، ص492.

[4] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط10، دت، ص173.

كساها أبهة وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر"[5]، إن الجرجاني يرى بأن التمثيل أحد أهم الآليات التي يمكن للمتكلم أن يعتمدها في توجيه ذهن متلقيه من خلال بلاغتها التي تأثر في نفس المتلقي، وأن ما كان من التمثيل في توظيفه آلية حجاجية زاد الخطاب قوة وإقناعا لأنه يميل القلوب والنفوس إليه.

يرى في هذا الاتجاه طه عبد الرحمان أن الجرجاني أول ما وظف الاستعارة كأداة وآلية بلاغية حجاجية حيث أدخل مفهوم الادعاء بمقتضياته التداولية (التقرير، التحقيق، التدليل)، كما استفاد من مفهوم التعارض.[6]

فمن أمثلة الادعاء أنك حين تقول أصبحت بيد الشمال زمامها، فقد ادعيت أن للشمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد.[7] وقد اعتبر الجرجاني حجاجية الاستعارة ليست حركة من الألفاظ وإنما هي حركة في المعاني

---

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، 1992، ص115.

[6] طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998، ص313.

[7] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية، ط1، 1992، ص67.

والدلالات، وليست لونا بديعيا وإنما هي طريقة من طرق الإثبات القائمة على الادعاء.[8]

وقد أجمل لنا الباحث طه عبد الرحمان الفرضيات التي انطلق منها الجرجاني في المقاربة الاستعارية:[9]

-القول الاستعاري قول حواري، وحواريته صفة ذاتية له.

-القول الاستعاري قول حجاجي، وحجاجيته من الصنف التفاعلي، وينتج جراء التداخل بين آليتي الادعاء والاعتراض، إذ يصبح المتكلم في القول الاستعاري ذاتا مدعية لوجود المعنى الحقيقي للجملة، وذاتا معترضة على وجود هذا المعنى في الوقت ذاته.

-القول الاستعاري قول عملي: إذ تلازم صفته العملية ظاهره البياني والتخييلي، من خلال ارتكازه على المستعار منه الذي يقصد منه تغيير المقاييس التي يعتمدها المستمع في تقويم الواقع والسلوك.

---

[8] محمد يزيد سالم، عبد السلام عابي، حجاجية الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة العمدة، جامعة المسيلة، ع04، ص266.

[9] طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، 312، 313.

الحجاج عند السكاكي:

يعد السكاكي هو الأخر من البلاغيين الذي اهتموا اهتماما بالغا بالحجاج، فقد كان بارعا في فنون شاملة تحوي الحجاج في المعاني والبيان، وكتابه مفتاح العلوم يحوي اثنا عشر علما يعد الحجاج أهمها.[10]

والمتتبع لهذا الكتاب يجد أنه جعل مبحثا كاملا في الاستدلال موسوم بـ: علم خواص تراكيب الكلام، حاول السكاكي أن يربط بين خصائص الكلام ومطابقته لمقتضى الحال من خلال الاستدلالات المنطقية وبطريقة شبه رياضية، وكما هو معلوم أن الاستدلال يتطلب حجة ودليلا، ويرى أن المتكلم حتى يؤثر في السامع لابد له من نظم الحجة في خطابه، والتي من خلالها يستطيع المحاجج إقناع السامع.[11]

يقول السكاكي: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم..."[12] فمن المعلوم أن هذه المقامات يختلف معها الخطاب، وكل مقام يحتاج إلى ترتيب حجج خاصة به، فالمتكلم يختار كلامه ويرتب خطابه بما يناسب ومقام الحديث، فالحجاج يحضر في كل هذه المقامات.

---

[10] عقابة أنيسة، الحجاج ضرورة ابستمولوجية: السكاكي أنموذجا، مجلة الرستمية، ص81.

[11] المرجع نفسه، ص 81.

[12] السكاكي، مفتاح العلوم، ص584.